ثلاثة كتب حول نظرة المسلمين العرب إلى الغرب

الأب جون دونوهيو اليسوعيّ(*)

الكتب الثلاثة هي:

- Noureddine AFAYA, *L'Occident dans l'imaginaire arabo-musulman*, 1997, Les Editions Toubkal, Casablanca. (نور الدين عفايا: الغرب في التخيّل العربيّ الإسلاميّ)
- Nasib Samir EL-HUSSEINI, *L'Occident imaginaire, la vision de l'autre dans la conscience politique arabe*, 1993, Presses de l'Université du Québec. (نسيب سمير الحسينيّ: الغرب الخياليّ، رؤية الآخر في الوجدان السياسيّ العربيّ).
- حسن حنفي، ماذا يعني علم الاستغراب؟ ٢٠٠٠، دار الهادي، بيروت.

«الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب، ولن يلتقي الاثنان». على هذا النحو فكّر روديارد كِپْلنغ Rudyard Kipling البريطانيّ، الحاصل على جائزة نوبل للآداب (١٩٠٧)، بعد أن أمضى سنوات في الهند. وطالما انتُقد قوله هذا وعُدّ تفكير رجل إمبرياليّ رسميّ يبالغ في اعتبار «أعباء الرجل الأبيض». غير أنّ الموضوعات التي تدور على الشرق والغرب في المناقشات، لا تزال مألوفة، وتتناول الفكر والثقافة والتطوّر. أمّا الآن، في أعقاب الهجوم على برجَي التجارة العالميَّين، وهما بمثابة رمز الرأسماليّة الغربيّة، فبعض الناس يخشون أن يكون عالمنا قد غاص في

(*) مدير «معهد دراسات العالم العربيّ المعاصر» - جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

دوّامة «صدام الحضارات»، كما سبق أن تصوّرها صموئيل هانتنغتون. وفي الواقع، تُبرز ردودُ الفعل على كارثة ١١ أيلول ونتائجها كم هو معقّد عالمنا المتعدّد الحضارات، كما تُبيّن درجة مقاومة عالمنا العَوْلمةَ خوفًا من ضياع الهويّة الذاتيّة.

ولا ريب أنّ الهويّة والغيريّة، و«نحن» و«هُم»، والحوار وحلّ الأزمات، هي موضوعات معاصرة كما كانت منذ قرن ونصف قرن. ولعلّ المرء يسأل أحيانًا: هل سينتهي ذلك يومًا؟

إنّ الأدب العربيّ حول موضوع «نحن والغرب» غزير. وقد سبق أن حلّل شريف مردين المأزق التركيّ العربيّ إزاء الغرب في كتابه: **نشأة الفكر العثمانيّ الحديث**[1]، فبيّن أنّ ثمّة مواقف ثلاثة أساسيّة تجاه الغرب تَوصّل إليها المفكّرون المسلمون، هي الرفض التامّ والقبول الأعمى والتكييف الانتقائيّ. وما زالت أصداء المواقف المختلفة هذه تتردّد في الندوات الدراسيّة إبّان القرن الحادي والعشرين. أمّا الفرق، فهو أنّ تلك المواقف تنقّحت وتصقّلت. وبالتالي، لا تزال المسألة حاضرة، إلّا أنّ المقاييس الثقافيّة تغيّرت - أقلّه في نظر المشاركين الأشدّ ذكاءً.

لا حاجة بنا إلى أن نتناول موضوعات النقاش تلك، التي باتت معروفة، والتي عالجها الطهطاويّ، وخير الدين التونسيّ، وجلال الدين الأفغانيّ ومحمّد عبده، فقد أجاد التطرّق إليها ألبرت حوراني في كتابه **الفكر العربيّ في العصر الليبراليّ**[2]. أمّا ما يهمّنا الآن فهو أن ندرك الفواوق الدقيقة التي نجدها في الكتابات الراهنة عن ثنائيّة الشرق والغرب.

أمّا الكتب الثلاثة التي أودّ أن أستعرضها، فهي تمثّل تغييرًا أساسيًّا

---

(١) دراسة عن تحديث الأفكار التركيّة السياسيّة. صدرت طبعتها الأولى عن مطبعة جامعة برنستون العام ١٩٦٢.

(٢) صدرت طبعة هذا الكتاب الأولى عن مطبعة جامعة أوكسفورد العام ١٩٦٢.

في وجهة النظر، لأنّها تحليل ذاتيّ أكثر منها تركيز على الآخر.

١- نور الدين عفايا مفكّر مغربيّ يكتب في مسائل ثقافيّة ويحاضر عنها. فرضيّته الأساسيّة هي التالية: لقد شغلت مسألةُ الغرب الوجدانَ العربيّ منذ زمن الحملات الصليبيّة حتّى الزمن الحاضر، واتّخذت أسماء متنوّعة واكتسبت مضامين متعدّدة في مراحل التاريخ المختلفة. فموضوعات الشرق والغرب تكرّرت مطوّلًا حتّى السأم، وأُسيء استخدامها، وأُقحمت في أُطُر مشوّشة أنتجت صورًا نمطيّة عن الذات وعن الآخر. فعندما يتمّ تصوّر الغرب الحقيقيّ تبعًا لطريقة التصوير الشخصيّة للغرب، تضحي جميع أشكال النمطيّة ممكنة.

ومن ثمّ يتناول نصوصًا بغية أن يُظهر كيف فَهِمَ مفكّرون عرب مسألة الغيريّة (الآخر)، وليدرس التغيير الذي حصل في الوجدان العربيّ عن الآخر. فيقدّم محمّدًا عبده نموذجًا عن الفكر السلفيّ، وطه حسين عن الفكر الليبراليّ، وشخصيّات رائدة حديثة في الإسلام السياسيّ، بصفتها دلالة على التغيير والجدال في شأن النظرة إلى الذات وإلى الآخر.

وبعد أن يستعرض خطوط فكر محمّد عبده العريضة، يقول مستخلصًا: «ولكن ما هو المضمون الذي يضفيه عبده على العقل (Raison)؟ وإلى أيّ حدّ أثّرت اتّصالاته بمؤلّفين أوروبيّين في فهمه العقل؟

«لقد فهم محمّد عبده، بصفته ممثّلًا شهيرًا للتيّار الإسلاميّ السلفيّ، جميع الأسئلة الحاليّة انطلاقًا من وجهة نظر إسلاميّة، أتّصلًا كان ذلك بالديموقراطيّة أم بالدولة أم بالعقل أم بالشعب، إلخ... وعندما ينادي بـ«تحرّر الفكر»، فهو يقوم بذلك من داخل الحقل الإسلاميّ الإيديولوجيّ والنظريّ الذي سبق النهضة. أمّا الدعوة إلى استخدام العقل - المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالإرادة الحرّة - فلا يمكنها أن تتجاوز مقولات الفكر الإسلاميّ التقليديّة.

«وتتحكّم آليّة فكره نفسها بفهمه أوروبّا والحضارة الغربيّة. فالغرب هو تجسيم التطوّر بفضل الحرّيّة والعقلانيّة والعمل - وهي قِيَم إسلاميّة

أوّليّة -، وكان يجب إعادة تفعيل هذه المبادئ من داخل الإسلام بغية الإسراع في إحداث التغيير والخروج من الضعف والتأخّر. غير أنّ هذا الموقف يؤلّف، في الواقع، حالةً ذهنيّة أكثر ممّا هو مفهوم مدروس دراسةً فلسفيّة. فانطلاقًا من هنا يصبح الغرب السببَ الأوّل لشعور حقيقيّ بالدونيّة. فالغرب قويّ ولكنّ قوّته مؤقّتة وعابرة، والإسلام سيعود وينبعث حتمًا. والإمبرياليّة الغربيّة هي تعبير عن الهمجيّة الكامنة في صميم تاريخه. ولا ريب أنّ محمّدًا عبده يعبّر هنا تعبيرًا حقيقيًّا عن التخيّل (Imaginaire) الجماعيّ الإسلاميّ بأعمق ما يحتويه في شأن الحملات الصليبيّة والمسيحيّة الأوروبيّة».

أمّا طه حسين الذي يمثّل النموذج الليبراليّ، فيبدأ من وجهة نظر مختلفة: مصر هي من الغرب، لا من الشرق.

يقدّم عفايا تحليلًا مهمًّا لرواية طه حسين: أديب، التي تبدو سيرة ذاتيّة، وإن أنكرت ذلك زوجة حسين:

«إنّ الرسالة واضحة عند طه حسين، وهي إعادة تفعيل الأساس الإغريقيّ في الفكر المصريّ، ودمج مكتسبات الحداثة التي ليست، بأيّ شكل من الأشكال، غريبةً عن ذلك الفكر. يتّصل الأمر إذًا بوعي جديد، بعودة إلى الذات. فمصر كانت دائمًا من بلدان المتوسّط ولا تزال كذلك. وهي جزء من أوروبّا، لأنّ لهما التراث عينه، وهي الحضارة الهلّينيّة. وبغية تحقيق العودة إلى الذات، وتحقيق الشراكة ضمن تبادل متكافئ، تؤلّف مكتسبات الحداثة، كما خلقها الغرب الليبراليّ، الطريق الواجب سلوكها والأسلوب الواجب اعتماده.

«هذه هي أفكار طه حسين الأساسيّة في شأن العقلانيّة (Rationalisme) والغرب. ولا شكّ في أنّ هذا المفكّر أراد أن يعتمد مشروعًا يلائم عظمة مصر التاريخيّة. إلّا أنّ المدهش عند طه حسين هو المنحى «اليُوطُوبيّ» (Utopique) في كتاباته. ذلك بأنّ اليونان، كما يصفها، وصورته الأوروبيّة الجديدة، ليسا، إن صحّ القول، إلّا «يُوطُوبيا»

من اختلاقه. وهذا الوهم هو، بكلّ وضوح، أجمل كثيرًا ممّا يترجمه في الواقع وفي التاريخ».

ومن ثمّ، في الفصل الثالث والأطول «الإسلام والرفضيّة المزدوجة: نظراتٌ موضعُ جدل إلى الذات والآخر»، يقدّم أمثلةً متعدّدة استمدّها من الإسلاميّين أو النشاطات الإسلاميّة. في نظر هؤلاء، تُفرض الحداثةُ من الخارج بفضل قوّة الغرب، ومن الداخل عن طريق نخبة مفرنجة. ويُتبع أمثلته بنقد لحسن البنّا وعَوده ومَوْدُودي وقُطب.

في ما يختصّ بالبنّا، علّق بما يلي:

«إزاء الدعوات إلى فَرْنَجَة مصر بغية تغيير أسسها الثقافيّة والتاريخيّة، فهم حسن البنّا حقيقتَين كبيرتَين: الأولى قِوامها أنّ المفكّرين المصريّين، بصفةِ كونهم تجسيدًا لوعي الأمّة، يعيشون ضياعًا حقيقيًّا بسبب الفترة الانتقاليّة التي يجتازونها، وبسبب تأثيرات الاستشراق والجاذبيّة التي يمارسها الغرب عليهم. ومن جهة أخرى، يحتاج الكيان الإسلاميّ إلى إعادة اعتبار وإعادة بناء. ذلك بأنّ الحضارة الإسلاميّة، التي عانت وكودًا طوال عصور، تعرّضت لهزائم وتحدّيات من الشرق ومن الغرب على السراء. فكان لا بدّ، بالتالي، من تحضير انطلاقة فكريّة جديدة، تربويًّا وسياسيًّا، لكي يُعاد بناء الشخصيّة المسلمة في العالم المعاصر».

غير أنّ المؤلّف يميّز، من جهة، بين البنّا وعَوده ومودودي وقطب، في ما يتّصل بتفسيرهم الإسلام تفسيرًا متصلّبًا، وبين الحركات الإسلاميّة والمفكّرين المسلمين، من جهة ثانية. فهؤلاء لديهم رؤية مختلفة عن العلاقة بين الدين والسياسة، ويقدّمون مقاربة مختلفة في شأن تسييس الإسلام: أحمد كمال أبو مجد، ورشيد العشماويّ، وسعيد العشماويّ، ورشيد غنّوشي.

في نظر الإسلاميّين، يمثّل الغرب «الاجتياح» و«الشكّ» و«الجاهليّة»، ويتقدون النهضة الأوروبيّة ومذهبها المادّيّ. أمّا الجواب الوحيد، فيجب أن يكون: الجهاد.

بيد أنّ بعض المفكّرين المسلمين، أمثال غنّوشي، فيرون من الضروريّ أن تُعاد صياغةُ، لا طريقةِ وعيهم الغربَ وحسب، بل وعيهم ذواتهم أيضًا. ويبدو موقف المؤلّف إيجابيًّا تجاه غنّوشي، ولكنّه يضيف شرطًا:

«على الرغم من مواقفه الجريئة في الحقل الإسلاميّ، في ما يتّصل بالسلطة وتعدّد الأحزاب Multipartisme والاختلاف السياسيّ والمرأة والغرب، إلخ...، يبقى متردّدًا بين تمثيل فكر النهضة والانتماء إلى الحقل الإسلاميّ».

في نظر المؤلّف (ص ١٠٢)، يمثّل التيّار الإسلاميّ، من جهة، إحدى النتائج السيّئة التي تسبّبت بها الحداثة غير المتوازنة، وهي حداثة فُرضت فرضًا، ومن جهة ثانية، اعتراضًا صريحًا على عدوان الغرب في أشكاله المختلفة.

ويطرح، من ثمّ، سؤالَين: هل الحداثة ممكنة من دون الفَرْنَجَة؟ وهل ثمّة نموذج مسلم للتطوّر؟ وينتقل بعد ذلك إلى الكلام على طريقة تقديم الغرب في وسائل الإعلام. فيسأل: ما هي صور الرؤية المسلمة العربيّة للغرب؟ وكيف تتداخل الثقافة والسياسة في صياغة الآخر؟

إنّ الغرب الذي يُعرَّف، بمفارقة لافتة، بأنّه متحضّر ونموذج، يُنظر إليه، في الوقت نفسه، على أنّه صليبيّ وغازٍ. وهذا يكشف عن الضيق الوجوديّ لدى الفاعلين في جدليّة الهويّة العربيّة. ومن جهة أخرى، يبدو أنّ الغرب، في الوجدان العربيّ المسلم ومخيّلته، يمارس ضغطًا مزدوجًا: الأوّل من الخارج يمثّل الغرب الذي هو العداوة المتجسّدة، والثاني من الداخل ويُنتج طريقة فهمٍ للذات مكروبة ومذنبة ودفاعيّة وحتّى عُصابيّة.

بالطبع، كان هنالك دومًا اجتياحات ثقافيّة، ولكن

«ما الذي جعل الثقافة العربيّة الوسيطة، في علاقاتها المفتوحة بالثقافة الإغريقيّة، لم تدفع أيّ ثمن من الناحية النفسانيّة، في حين أنّ

الثقافة العربيّة الحديثة تجد نفسها مضطرّة إلى تسديد الثمن بتوازنها وثقتها بنفسها؟».

يَكْمن الفرق في أنّ العرب، إبّان العصور الوسطى، عاشوا حالة «تبادل ثقافيّ» (Interculturalism) مع الإغريق، إذ كانت الحضارة العربيّة المسلمة في حالة تقدّم ونهوض حقيقيّ. لذا، لم يزعجهم على الإطلاق الاقتباس من الآخرين أو الاستلهام منهم. إلّا أنّ المفكّرين العرب في الزمن الحديث قد أُرغموا على دمج النظام الثقافيّ الغربيّ تحت ضغط شعور عميق بالهزيمة. وهذا أساس الفرق بين ثقافة المنتصِر وثقافة المهزوم، وبين ثقافة المشاركة وثقافة عقدة الدونيّة.

أمّا الوطنيّون والإسلاميّون، فيقولون: هذا صحيح، فنحن أمّة معرّضة للاجتياح في أشكاله كافّة. ولكنّ العرب الذين يملكون جميع الوسائل الضروريّة الآيلة إلى تحقيق نهضة أكيدة، لم يحسنوا توظيف تلك الوسائل كما يجب، بل هدروها وحادوا عن أهدافهم الوطنيّة.

ها هو العالم، إذًا، يتغيّر، وتبقى حجج العرب نفسها.

يمكن الكثيرين أن يروا أنّ هنالك ما هو إيجابيّ وما هو سلبيّ في الغرب، وأنّ هنالك نواحيَ معيّنة يجب أن تُكيَّف لكي يتمّ أيّ تقدّم منشود. على سبيل المثال، اكتشف هشام شرابي في أمريكا أنّ التحرّر الفكريّ لا يمكن أن يتحقّق من دون وضع حدّ للقمع، وأنّ المساواة الاجتماعيّة لا يمكن أن تكون واقعيّة من دون تفكيك السلطة الأبويّة، لأنّ الديموقراطيّة الاجتماعيّة تبدأ بجعل العلاقات العائليّة ديموقراطيّة.

ولكن ثمّة تناقضات في وسائل الإعلام، وأكبر تلك التناقضات في دول الخليج، فهي من أكثر البلدان استهلاكًا لمنتجات الغرب، وفي الوقت نفسه، نجدها تموّل الحركات الأشدّ عداء للغرب. أمّا الحلّ، فهو أن يأخذ الوعي العربيّ المسلم زمام تغرُّبه (Westernness) بيده، من دون أيّ اقتلاع مأسويّ للذات، ومن دون أيّ مماثلة وهميّة مع الآخر. ولا ريب أنّ التبادل بين الثقافات (Intercultural communication) يخلق أفقًا

خصبًا، من دون أيّ تسوّل فكريّ أو رفض خاطئ.

٢- الكتاب الثاني بقلم نسيب سمير الحسينيّ (لبنانيّ يعيش في كندا): الغرب الخياليّ، رؤية الآخر في الوجدان السياسيّ العربيّ. يحاول المؤلّف أن يعيّن بدقّة متى أصبحت عبارة «الغرب» شائعة. فيشير إلى أنّ بعض الكتّاب يتكلّمون على نزاع دائم بين الشرق والغرب، إلّا أنّ عبارة «الغرب»، مع جميع أبعادها الإيجابيّة والسلبيّة تعود إلى زمن انحطاط العثمانيّين. ويُبرز العناوين التالية:

- الغرب الأسطوريّ.
- الغرب التاريخيّ.
- الغرب وقد جُعل مثاليًّا.
- الغرب المرفوض.
- التغرّب (التمزّق) والبلبلة.

ويختم بدعوة إلى الحوار.

في ما يختصّ بالناحية الأسطوريّة، يبرز الصليبيّون خيرَ مثال. فنحن نستمدّ الصور والصيغ المبتذلة من الماضي لندعم مواقف سياسيّة راهنة. «وأخيرًا، في شأن الصليبيّين، لا بدّ أن نضيف أنّ تفحّص الجرائد اليوميّة مثل النهار والقَبَس والأهرام و*L'Orient-Le Jour*، عن أوقات الأزمات في علاقات الشرق والغرب، تبيّن أنّ مَظاهر تأثير صورة الصليبيّين في طريقة فهمنا الغرب، غير قليلة».

أمّا عن الغرب التاريخيّ، فالحدث الأبرز في الفترة الحديثة هو حملة نابوليون على مصر، التي يرى الكثيرون فيها بداية العصر الحديث في الشرق الأوسط. غير أنّه يتّخذ من المؤرّخ الجبرتيّ مرجعًا: «يُطلق الجبرتيّ سخطه. وهو يسمح لنا بأن نتبيّن صورتَين على الأقلّ لا يمكن دحضهما: صورة المقاومة وصورة الغرب بأخلاقيّته الهشّة».

وبوجه العموم، يختلف الحسينيّ عن عفايا في اختيار الشخصيّات.

وعن أولئك الذين يجعلون الغربَ مثاليًّا، نجد، في مَن نجد،

الطهطاويّ وطه حسين، بل وأيضًا شارل مالك وفيليب حتّي، والعائلة الملكيّة الأردنيّة الهاشميّة وأنور السادات. وفي هذا السياق، كتب شارل مالك:

«إنّ هذه القرابة الثقافيّة العضويّة بين الشرق الأوسط والغرب كانت موضوع تعجّب وتفكير مدّة آلاف السنين. فما من أحد ينسى أصوله، وكذلك لم يملّ الغرب يومًا عن التفكير الملحّ في سرّ الشواطئ الشرقيّة العظيم، حيث وُلد. فهل أوروبّا التي كانت أميرة فينيقيّة جميلة حملها زفس الجبّار نفسه، مجرّد أسطورة تخلو من كلّ معنى؟».

وفي ما يعود إلى العائلة الأردنيّة المالكة:

«إنّ خطاب العائلة الملكيّة الأردنيّة عن الغرب يتميّز من وجهين: أوّلًا، هو يمثّل وجهًا من وجوه الوعي السياسيّ العربيّ. فتلك العائلة هي الوحيدة من سلالة الشريف حسين التي لا تزال في السلطة، مع كلّ ما يعني ذلك لتصوّرنا الجماعيّ للغرب، نظرًا إلى الدور الذي قامت به تلك العائلة في اتّصالها العسكريّ والسياسيّ بالغرب، في فترة حاسمة من تاريخنا، هي فترة تمزّق الإمبراطوريّة العثمانيّة. ولكنّ ذلك الخطاب يتميّز أيضًا بطريقته المباشرة المتعمّدة في تعامله مع مسألة العلاقة بالغرب».

أمّا الكلام على «الغرب العرفوض»، فهو مركّز على كتابات سنّيّين مصريّين، هم عبده والبنّا وقطب، وشيعة مثل الخمينيّ ومحمّد حسين فضل الله، إضافة إلى ميشال عفلق والبعثيّين بمثابة نماذج علمانيّة.

«وفي النهاية، من الجليّ أنّ الإسلاميّين البنّا وقطب والخمينيّ وفضل الله، يرغبون في أن يجعلوا إزاء الغرب أمّة قاسمها المشترك هو الدين. أمّا عبده، الذي لا يمكن أن يُجْعَل في عدادهم، فيبدو، هو أيضًا، عازمًا على مواجهة المدّ الثقافيّ والدينيّ القادم من الغرب، على طريقته. فجميعهم يرغبون، كلّ على طريقته، في إقامة سدّ تجاه وجوه الثقافة الغربيّة التي تمثّل تهديدًا».

وفي ما يتعلّق «بالتغرّب والبلبلة»، فنجدهما عند الطيّب صالح

(السودان)، ومحمود حسين، وعبدالله العروي، ومرسيل خليفة، وإدوارد سعيد، وحسن حنفيّ، وجلال صادق العظم. ويوضّح الكاتب هذه النزعة بواسطة عرض مطوّل لرواية الطيّب صالح، فصل الهجرة نحو الشمال *(La Saison de la migration vers le Nord)*. فيشير إلى العناصر التي تُغري والعناصر التي تُضلّل، إضافة إلى القناعة الواسعة الانتشار بأنّ ثمّة مؤامرة مستمرّة ينفّذها الغرب المادّيّ، هي تجسيد للفسق والرياء.

وفي حين يُبدي انتقادًا جادًّا لطه حسين وإدوارد سعيد وعبدالله العرويّ، يعالج مرسيل خليفة وحسن حنفيّ إيجابيًّا، لأنّهما يريان بوضوح أنّ الغرب لا يوجد إلّا في مخيّلتنا.

«تكشف نظرة مرسيل خليفة عن حالة الامتعاض والانتفاض التي تميّز الوجدان العربيّ كما عرّفناه تبعًا لحاجات هذه الدراسة. ولكنّ هذه الدراسة إن هي إلّا دعوة إلى الإدراك أنّ الغرب لا يوجد خارج وهمنا. ولكي نقاومه، يجب أن نعي طبيعة ذلك الوهم ونتحرّر هكذا من تسلّط تفكيرنا المكيّف. فعن طريق إدراك الإطار في تعقيداته، من دون تدخّل الغرب، يمكننا أن نتبيّنه على نحو أفضل».

أمّا ظاهرة «الاستشراق معكوسًا»، التي يشير إليها صادق العظم، فلم تترك أثرًا في القوميّة العربيّة وحسب، بل في الحركات الإسلاميّة أيضًا. يتّهم العظم أدونيس والمفكّرين الإسلاميّين بأنّهم يخلّدون عقيدة الاستشراق التقليديّة المتّصلة بطابع الاختلاف العضويّ الثابت بين الغرب والشرق. يقول العظم:

«يسترجع الإسلاميّون، بطرق شتّى، القناعة الجوهريّة التي تميّز «ميتافيزيقيا الاستشراق»، والتي بموجبها الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب، ولكلّ منهما طبيعته الخاصّة وميزاته المعيّنة، لكي يتمّ، من ثمّ، قلب الحكم القيميّ الملازم للأخلاق المستشرقة الغربيّة (Morale orientaliste occidentale)، صراحة أو ضمنيًّا، على نحو يخدم هذه المرّة الشرق. لذا، فلا عجب أن يستبدل الإسلاميّون بالمعارضة المألوفة بين حركات التحرّر القوميّة، من جهة، والهيمنة الإمبرياليّة، من جهة

ثانية، معارضةً من نوع مختلف، هي الغرب في مقابل الشرق».

ويختم الحسينيّ بقوله:

«من فرط ما كرّرنا لأنفسنا أنّ الشرق والغرب موجودان، ومن فرط ما أردنا أن نمثّلهما، تركناهما يجتاحان وجداننا. ومن فرط ما شعرنا بأنّنا عرضة للاعتداء باسم الغرب، تركنا الغرب يترسّخ في حقدنا. ومن فرط ما علّقنا الآمال على إنجازات الغرب، تركناه يحتلّ أحلامنا. وباختصار، إن كنّا من المتآمرين مع الغرب أو أعداءه، وإن كنّا نشيد به أو نرفضه، فنحن لا نتوقّف عن تقوية صورة للغرب، لا يمكن دحضها على ما يبدو. فهل يمكن أن نعيش يومًا متحرّرين من صورة الغرب الدائمة الحضور؟ لربّما من الوهم أن نظنّ أنّ بمقدورنا أن نتخلّص من صور ومعالم مترسّخة بقوّة في ذاكراتنا الجماعيّة. ولكن يمكننا، على الأقلّ، أن نعي مدى تسلّطها على رؤيتنا الآخر، وأخيرًا، على رؤيتنا أنفسنا.

«قال بيتر سلوتردايك (Peter Sloterdijk): «إنّ ما يزعجني عند الآخرين، هو أنا. ذلك الآخر الذي ليس هو إلّا أنا».

٣- أمّا الكتاب الثالث، بقلم حسن حنفيّ، ماذا يعني علم الاستغراب، فيقدّم مختصرًا عن مجلّد ضخم عنوانه مقدّمة في علم الاستغراب. وفي الواقع، منذ العام ١٩٧١، وحنفيّ يتكلّم على الحاجة إلى علم الاستغراب[٣]. والآن، بعد ثلاثين سنة، أنتج أولى محاولاته. أوّلًا، يستشهد، في إهداء المجلّد الضخم، بالحديث: «لَتتبعُنَّ سُنَنَ مَن كان قَبلَكم، باعًا بباع، وذراعًا بذراع، وشبرًا بشبر، حتّى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه! قلنا: يا رسول الله، أليهود والنصارى؟ قال: فمَن؟»[٤].

(٣) راجع مقالاته التي ظهرت في: الفكر المعاصر، مجلّد ٧١، ١٩٧١، ص ٧-٢٧.

(٤) «قد يعطي هذا الحديث الذي يقوم بديلًا عن الإهداء إيحاء بأنّني رافض للغرب، متقوقع على الذات. وهي التهمة التي تقال عادةً على الاتّجاه السلفيّ التقليديّ. ولكنّني أدعو فقط إلى إبداع الأنا في مقابل تقليد الآخر، وإمكانيّة تحويل الآخر»

ولأنّ المجلّد الأصليّ ضخم ودسم، فقد صدر ملخّص عنه، تضمّن تمهيدًا مهمًّا للناشر عن مراحل الاستشراق. ولا شكّ في أنّ بعض الاستشهادات تقودنا إلى لبّ العلم الجديد هذا:

– لا يبتغي الاستغراب القضاء على الثقافة الغربيّة، بل تحليلها، ومعرفة مكوّناتها، وتتبّع عناصرها إلى مصدرها لكي يتمّ تطوير مناعة إزاء تلك العناصر التي تحطّم هويّتنا.

– يعتبر حنفيّ أنّ الاستغراب تحرير «للأنا» العربيّ من تقليد الغرب، فهو يحوّل الغرب من مصدر العلم إلى مادّة للدراسة.

– إنّ العربيّ الذي كان مادّة للدراسة أصبح الآن هو الفاعل.

– تكمن المشكلة في أنّ التغرّب ليس علمًا دقيقًا إلى الآن، بل هو أقرب إلى إعلان نوايا.

الخاتمة

في ما تقدّم، إذًا، نموذج عن بعض المؤلّفين الذين يرغبون في معالجة موضوع حوار الحضارات جدّيًّا. لعلّ حسن حنفيّ يبالغ في محاولته، غير أنّ المؤلّفَين الآخرين يقدّمان وجهات نظر مع اقتراحهما خرق وهم الغرب أو أسطورة الغرب في الفكر العربيّ الشعبيّ.

نقله عن الإنكليزيّة الأب صلاح أبو جوده

=إلى موضوع للعلم بدلًا من أن يكون مصدرًا للعلم. وهذا هو موضوع «علم الاستغراب».